

الفصل الأول

فرنسا : للوصاية

١٧١٥ - ٢٣

١ - فولتير الشاب : ١٦٩٤ - ١٧١٥

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى اطلاق سراحه من الباستيل في ١٧١٨ يدعى فرانسوا ماري آرويه . وقد ولد بباريس في ٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، وأصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٧٨ . أما الرجل الذي يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية تينون دلانكلو ، وكتب وصيتهما ، وعرف المسرحى بيير كورنيى ، ووصفه بأنه « أثقل من لقي من الناس ظلا (١) » . وأما أمه ، ماري مارجريت دومار ، فكان يجرى في عروقتها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف فى « البرلمان » وأخت المراقب العام للحرس الملكى ، ومن طريقهما استطاعت الوصول الى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكاؤها المرح من بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير الى أنها ملكت كل ما وهبت أسرته من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه فى الأربعين وهو لم يجاوز السابعة . وكان أكبر ابنائها الخمسة ارمان ، الذى كان غيورا على لاهوت الجانسنين حريصا على ميراث الأسرة . أما أصغر الأبناء فرانسوا ماري ، فكان معتلا فى عامه الأول ، حتى أن أحدا لم يصدق أن ستكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب كان يخلع على أى كنسي علمانى ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن . وقد أصبح كثير من هؤلاء الآباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا فى المجتمع رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من ألفوا المشاركة للسافرة فى

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشتهي متسترا وان حافظ على مظهر لقيه . مثال ذلك الأبيه دشاتو نوف ، آخر عشاق نينون دلانكلو وأول معلم لفولتير . وكان رجلا واسع الثقافة ، رحب الأفق ، وقد أشرب تلميذه وثنية نينون وارتيابية مونتيني . وفي رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبى ملحمة هازلة تدعى « الملحمة الموسوية » كانت تتداول في مخطوطات سرية ، ومؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الأيمان بكائن أعظم ، ليس الا ذريعة يتذرع بها الحكام لاختضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الأبيه » في زيارة لنينون ، وكانت الغانية الشهيرة يومها (١٧٠٤) في الرابعة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالمومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر في تاريخ لاحق صنيعها فقال « لقد طاب لها أن تذكرني في وصيتها ، فتركت لي ألفى فرنك لاشتري بها كتبا (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة في موازنة هذا الغذاء ألحق الصبى وهو في العاشرة طالبا مقيما بكلية لوى - لجران اليسوعية على شاطئ باريس الأيسر ، التي اشتهرت بأنها أفضل مدرسة في فرنسا . وكانت تضم بين تلاميذها الألفين من أبناء الأشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفي السنوات السبع التي أنفقها فولتير في مدرسته صنع الكثير من الأصدقاء الأرستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالألفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسنا في الدراسات الكلاسيكية ، والأدب ، ولا سيما المسرحية ، ومثل في مسرحيات عرضت هناك ، وكتب هو نفسه تمثيلية وهو بعد في الثانية عشرة . وكان متقدما في دراسته ، وظفر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأفزعهم . فلقد أعرب عن عدم ايمانه بالجحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبا أحد معلميه في حزن بأن هذا المفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية - أي الدين الذي يرفض كل لاهوت تقريبا فيما عدا الأيمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبادلهم هذا الصنيع باحتفاظه - طوال مرطقاته كلها - باحترام وعرفان بالجميل

دافئين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام
كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهودا مضنية لم
ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم . . . ولقد اشربونى
ميلا الى الأدب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من
شيء سيمحو من قلبى ذكرى الأب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على
كل من أخذوا عنه العلم . فان أحدا من المعلمين لم يحبب تلاميذه فى
الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الأب . . . وقد أسعدنى الحظ بتلقى
العلم على أكثر من أب يسوعى جملته أخلاق الأب بوريه . . . فما الذى
رأيتة خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب
للحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبذلونها
لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وانى لأستشهد بالآلاف الذين علموهم
كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

وبعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الأدب مهنته ، ولكن أباه
أصر على أن يدرس القانون ، محذرا أياه من احتراف الأدب الذى هو
كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سنين
« يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنة المحاماة
الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الأشياء عديمة الجدوى
التي أرادوا أن يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شعارى هو : التركيز على
صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين
والسوابق القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الأبيقوريين كانوا
يجتمعون فى التأميل - وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل
(الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب دفاندوم ، كبير رؤساء
أديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ،
ومعه الآباء سيرفيان ، ودبوسى ، ودشوليو ، ومركيز دلافار ، وأمير
كونتى ، وغيرهم من الأعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحياسة
مرحة . . . وكان الآبيه دشوليو يجهر بأن الخمر والنساء أطيب النعم
التي جادت بها على الانسان طبيعة حكيمة خيرة (٧) . وقد لاعم
فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالسهر خارج

البيت مع أمثال هؤلاء المسلمين العربيين حتى العاشرة مساء ، وكانت
تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاى (١٧١٣) ، ربما
بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسية
فى غرام أوليمب دنواييه ، وكيف لاحقها بأشعاره ، وقطع لها العهد
بعبادتها الى الأبد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبنى ، لأنه
لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وأبلغ السفير أرويه الأب
بان فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه
من ميراثه ، وهدد بنفيه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب
فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بأنه قاتل نفسه ان لم تبادر بالحضور
اليه . واذ كانت أعقل منه بسنتين اثنتين ، وبجنس واحد ، فقد ردت
عليه بأن من الخير له أن يصلح أباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح
عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام ويقيم معه ، فوافق . اما بامبيت
فتزوجت كونتا . ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية .
لقد كان انسانا مرهف الشعور كأي شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه
لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه
لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تآلف بين عقليين . لقد فاضت
طاقته من خلال قلمه . كتب الى المريضة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة
والعشرين يقول « ان الصداقة أثنى ألف مرة من الحب . ويخيل الى
أننى لم أخلق قط للغرام . فاننى أجد فى الحب شيئا سخيفا نوعا ما . .
وقد قررت أن أطلقه الى الأبد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتنفست أوروبا
البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة ملك
ونهاية عصر : ملك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر - عصر القرن
العظيم - بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ،
وفخامة فن الباروك ، وانتهى بانحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب
واقفاره ، وهزيمة فرنسا واذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى
الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ - الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جده ،
وأبوه ، وأمه ، واخوته ، واخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا
عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى
مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل
حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن
جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقي على قيد الحياة بعد موت الملك
الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنوتها شرعا ، وأصدر
مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم
الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البالغ
آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعشر زادت
قدمه المشوهة من حيائه وجبنه ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته
الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتي بلغ ثمنها
٩٠٠٠٠ ر. جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته اليطموح كانت تحثه
على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقة
مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط
أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشعراء
(ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مرحة وفيه تمهيدا للملك
وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امرأة لا عيب فى جسمها
ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر
صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهة
حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون
وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى
المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس
١٧١٥) تركت لدوق مين الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه ،
وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيها فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا
للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيسا
للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الأول (المسيو) الأخ الخنثوى
للملك الشيخ من زوجة ثانية - هى شاررلوت اليزابث أميرة البالاتين

الخشنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نبط بأب دينى تصفه « مذكرات » سان - سيمون ، كما تصفه « المذكرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بأنه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كثيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان - ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه بإداء الأعمال الحقيرة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان - لوران ، ضابط بيت « المسيو » وجز شعر رأسه ليترهب ، ورسم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان - لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو - الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « ان الابيه احسن ان تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد أخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وأفلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . أما سان - سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسة يضئ به بعض الذكاء . لقد كان - فى كلمتين مألوفتين - وغدا أصيلا . اضطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملا ذهنه الضجيج المتصل - آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والمسلق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كأنه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الأوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود . . . كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله أفسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من مسام جسده كلها . . . شرير . . . خائن ، عاق ، خبير بأخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود أن يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان - سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب ، وعلينا الا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الأبىه كان دارسا كفتسا ،
ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكيما موقفا ، وأن فيليب لخبرته بالرجل
ظل وفيا له الى النهاية .

أما التلميذ ، الذى ربما كان نسبة من ناحية الأب قد أفسده ، فقد
تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلا ورذيلة . أبهج معلمه بذاكرته القوية ،
وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهعه وتذوقه للأدب والفن . وأتاه
دبوا بفونتنيل ليعلمه أصول العلوم ، وبهومبيرج ليعلمه أصول الكيمياء ،
وسيكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك
انجلترا ولفولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكيميائية بعض
الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صوراً لا بأس بها ، ويعزف
على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواقة
خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة
التنوع ، وملاهيته تستأثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الأيمان
الدينى ، وحتى أمام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) »
وفى هذا ، كما فى إباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن
الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرتنا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى يسر
وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة ، وينفق ملايين
الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيته وهواياته الشخصية ؛ على
أنه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب
عطوف ، رعوف (كما قال سان - سيمون (١٣)) أكثر وفاء لأصدقائه
منه لخليلاته . وكان يثمل بالشراب كان السكر شعيرة يؤديها كل ليلة
قبل أن يمضي الى فراشه (١٤) . فاذا وبخته أمه أجابها « من السادسة
صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضنى ، ولولا أنى الهو
بعد ذلك لما أطقته ، ولت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الأول عذر فى اسرافه فى الجنس .
ذلك انه شغف حبا بالآنسة سيرى ، وكانت وصيفة شرف لأمه ، عريفة
المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويزورها مرتين فى

اليوم ، وأراد أن يتزوجها . ولكن لويس الرابع عشر عبس ، وزكى له ابنته غير الشرعية ، دوقة بلوا ، تزكية قوية . وأطاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيري حتى ولدت له ابنا . فنفاها الملك الغاضب من باريس . وبعث لها فيليب بالمال الكثير ، ولكنه حاول أن يكون وفيا لزوجته ، دون أن يوفق في ذلك طويلا . ومنحته ابنة ، هي دوقة بيري المستقبلية ، التي أصبحت أعلى حب له . وأمر مأساة في حياته .

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثرورة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، الا أن يستمتع بحياته في السلم ويخاطر بها في الحرب . وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضد الحلف الأعظم (١٦٩٢ - ٩٧) ، وأصابته من جراء ذلك جراح كبيرة . ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهتره في حروب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) . فلما نجا من الموت كافا نفسه بوليمة من البغايا . وكان في آثامه كلها ، وفي غير استهتاره الدينى ، يحتفظ بلطف في السلوك وتهذيب وأدب في الحديث يذكر الناس بشباب « الملك الشمس » الحالم .

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش الا بعد أن أزيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، اما بالموت واما بالمعاهدة . واتهمته الشائعات بأنه سمم أمراء البيت المالكي ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية . وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا أهون من دوق مين ودوقتها . فالبروتستانت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح . كذلك الجانسونيون الذين قاسموا من الاضطهاد الملكى والمراسيم البابوية ، وكذلك أصحاب « العقول القوية » أو أحرار الفكر الذين أبهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنسا ، وكذلك جمهور باريس الذى سئم صرامة الملك المتوفى وتزمته الذى جاء متأخرا ، وكذلك جورج الأول ملك إنجلترا ، الذى عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، وأهم من هؤلاء جميعا أن « نبلاء السيف » -

أى الأسر النبيلة التي أنزلت عن سلطانها القديم بأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش عالة على البلاط - هذه الأسر راودها الأمل بأنها عن طريق فيليب ستثار لنفسها من الاهانة الملكية ، اهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الادارة . وحث سان - سيمون فيليب على التخلّى عن تبطله وفجوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحدا من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثر أن يترك شأنه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة ، فاشترى هو - أو هم - تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بأمال رد امتيازاته السابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ - غداة موت لويس الرابع عشر - دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتماع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى مالية الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، واعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليل الحكيمة ، وهانذا التمسها سلفا (١٦) » . أى أنه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق وأغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة ، وبإيعاز البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش وأعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وانه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولاً عن شخص الملك الصبى ، وانه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فاخذ فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفا مين ساخطا عاجزا الى ضيعته فى سو ، والى تقريرات زوجته العنيفة . وأصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانية أعوام ، وكان يومها فى الثانية والأربعين .

٣ - ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ - ٢٠

كانت مهمته الأولى إعادة النظام والاستقرار الماليين إلى الدولة . لقد ورث حكومة مفلسة ، بلغ دينها ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ رطل ، أضيف إليه دين قصير الأجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على الدولة » - وهي كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنئذ ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافي إيرادات الحكومة عام ١٧١٥ لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليوناً . وكان أكثر الدخل المنتظر في ١٧١٦ قد أنفق مقدماً (٤٧) .

وأشار سان - سيمون بأن تشهر الحكومة أفلاسها . ولكن الدوق أدريان موريس دنواي احتج . ووفق الوصي بين الرايين بأجراءات اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش إلى ٢٥٠٠٠ مقاتل ، وأعفى الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، وأعفى آباء الأطفال الثمانية إعفاء دائماً . وخفضت ضرائب « التاي » ، والجاييل ، والرعوس ، وغيرها من الضرائب . وندد بالفساد الذي استشرى في جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفت مئات من شاغلي الوظائف الحكومية الزائدين عن الحاجة - ومنهم ٢٤٠٠ في باريس وحدها . وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمثول امامها كل الماليين ، والتجار ، وأصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه في أنهم غشوا الحكومة . وهنا أقام نواي ، الذي ألف الاجراءات العسكرية ، حكم ارهاب حقيقيا ، فوعد بالرافة كل من يكشف عن زملائه من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمس المبالغ التي تسترد بفضل مساعدتهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ، وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد مدى الحياة عقاباً لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالي . وشنق بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر في المشهرات امام جمهور مبهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يئسوا من تبرئة انفسهم . على أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك أن أكثر المذنبين اشتروا الاعفاء من الفحص أو الادانة برشوة موظفي الغرفة ، أو أصدقاء الوصي ، أو خليلاته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حداً كان أفراد الحاشية

بيسعون فيه لى الرشوة بدلا من أن يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك أن أحد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرها ٢٠٠٠٠٠ فرنك ، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تأخرت كثيرا ، لانى أبرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . وأعلن المرسوم الذى ألغى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة . ندر أن تتحلى بها الحكومات ، أن « الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال بالخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب أمل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقد ولد لمصرفى من أدنيره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لندن ، وشهد افتتاح بنك انجلترا فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب ، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على رأسه حكما بالأعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضارب بنجاح فى سوق النقد الأجنبى ، وأعانتته قدرته على حساب ارتباطات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى أمستردام ، وهامبورج ، والبندقية ، وجنوة . وفى أمستردام على الأخص أخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى أتاح للمصرف أن يصدر أوراقا نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الأنشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الارصدة المصرفية ، دون عناء حمل الفضة أو الذهب أو مبادلتهما . وساعل نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام ائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفكر فى وضع « نظامه » - وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد ، بضمان الحكومة ، لمثلئى قيمة الاحتياطيات القومية من الفضة والذهب .

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمال على اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الأعمال ، وتزيد الاعمال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو أمكن اقناع الشعب - عن طريق المدفوعات من الفوائد - بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لأضيفت هذه المدخرات الى الاحتياطيات ، وأصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما أصبح فيليب أورليان وصيا ، عرض لو أن ينقذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة . وتساءل : لم تنفرد فرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوروبا الكبرى بخلوها الى ذلك الحسين من المصارف القومية ؟ ولم تردت فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب وأهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعاً أهلياً . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، وأقرض القروض ، وأصدر أوراق نقد - من فئات عشرة ومائة وألف فرنك - سرعان ما أصبحت وسيطاً مفضلاً فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية اول نقود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، اول طرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى ابريل ١٧١٧ تقرر قبول اوراق المصرف سداداً للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من أفكاره اشد مغامرة . ذلك انه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغرب » لاستغلال حوض المسبى باكملة ، وكان يومها خاضعا لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر السهم منها ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عالياً ، ولكن يجوز دفع ثلاثة ارباعه سندات حكومية بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية .

وبإدراك الجمهور إلى شراء الأسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التي أتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسهما في مشروع يرجى من ورائه الربح . وأصدر لو - في تفاؤل متزايد - تعليماته لمصرفه بأن يشتري الاحتكار الملكي للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التي تشتغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات إلى شركة الغرب فالف منها « شركة جزر الهند » التي ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدأ لبعض رجال الأعمال أن الاشتراك في التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية في الإنتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفي ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تأسيس مصرف لو باسم « المصرف الملكي » ، واعترف بأوراقه أوراقا نقدية قانونية ، وأعطى الإشراف الكامل تقريبا على مالية الأمة . وأصدر لو إصدارا جديدا من الأسهم في شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيها . وسرعان ما تم الاكتتاب . وزاد توقع الناس للارباح المرتفعة في تقديرهم لقيمة الأسهم ، فتبادلوها بأسعار مطردة الزيادة في موجة مضاربة ، حتى طلبت بسعر ٥٠٠٠ ره جنية ، أي بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية . وتصادف أن مرت بباريس في ١٧١٨ الليدى ماري ورتلى مونتاجيو ، فابتسمت لرؤية فرنسا تترك التصرف في حياتها الاقتصادية لرجل بريطاني . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكي الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومى باعطائه حصة في شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٥٠٠٠ ره جنية في تعهدات الحكومة ، وخيل إليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا في مشروعاته المنسوعة . ثم عرض قدرة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر باعطائه منحة للوصي قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدت حماستهم للشركة ، وزايد المشترون بأسعار أعلى وأعلى على أسهمها . وزاد المزيفون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة إلى السوق . وظل شارع كانكبوا ، الضيق القذر ، الذي اختار « النظام » فيه مكانه ، هدى معامين المركز المالى الرئيسي لباريس (أشبه ببول مستريرت في

نيويورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشتد يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيلاى » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جسعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة بأصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل أحيانا كل ساعة ، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذا كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان سريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخادم فى فندق ثلاثين مليونا (٢١) . وسمع الناس لأول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان أساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتسمين نصحه فى شئون المال أو تاييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيذا ذكرى ذلك العهد فقال « رأيتہ يعينى يخترق ابهاء الباليه - رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف - وماريشالات فرنسا ، وأساقفة الكنيسة (٢٣) » . وقبلت إحدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار أفكاره الظاهر أفسده ، أو ان استفحال سلطانه الشخصى أطغاه ، والواقع أنه ربح للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور أسهم الشركة اليها (٢٤) . ولم يستغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان - سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبيعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طبيعا

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطائته ، ولا فى ملئدة طعامه ، ولا فى أثائه ، ما يصدىم الناس . وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية . . . أصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لأنه أجنبى وبروتستنتى ، ولاحظوا أنه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثولىكى الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، وأظهر نحو جماهير الشعب عطايا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ - أعنى نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) - وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الأغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ - ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وأفريقيا ، وأمريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فأصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الأوج الذى أدركته تحت كولبير . وأقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لويزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر أركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم أسرة الوصي .

على أن المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحي . فلقد كان شطر كبير من وادى المسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فدانا على الأسر المهاجرة الى الوادى . فلما تبين أن الهجرة أقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبغايا الى لويزيانا ، ودفع الشبان والشابات (أمثال مانون ليسكو فى رواية بروسى) الى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون أسوأ الطعام حتى مات كثير منهم فى الطريق . وأوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجى . أما فى المستعمرة ذاتها فان التجهيز الرديء ، والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت ارباح « شركة المسبى » (كما سماها الناس) أقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح أن آمال استخراج الذهب أو الأحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم فى وهم ، رغم أن لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد أن نبا هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم اذكى المضاربين أن أسهم الشركة قد بلغت قممتها ، أما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افتقروا الى المعلومات أو الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لأنهم تأخروا فى بيع أسهمهم . وفى ديسمبر ١٧١٩ أصبح التهافت والتنافس على البيع أكثر مما كان على الشراء . ففى بحر شهر واحد باع الدوق بوربون أسهما بعشرين مليون جنيه ، وأمير كوزديه بأربعة عشر مليونا ، وتطلب الأمر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذى لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمنا لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (٢٦) . وأفرغ مضارب بروسى ما يملكه منها ، ثم مضى بثلاثين مليونا من الجنيهات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن أسهمهم ليشتروا أرضا أو بيوتا أو حليا أو أشياء اخرى مما تستند قيمته على اساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . أما المليون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لانفسهم بصرف ثمن أوراقهم وارسال الذهب خارج فرنسا . وحاول لو أن يقف تدفق الذهب من الخزانة ، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعادن النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتّم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكى . وخول لندوبى المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر . يقول سان - سيمون « لقد أخفى الكثيرون أموالهم فى تكتم شديد حتى أنهم - بعد أن ماتوا دون الافضاء بممكن كنوزهم الصغيرة - ظلت هذه مدفونه وضاعت على وراثتهم (٢٧) » .

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩٠٠٠ رنيه (بأوراق النقد) ثمنا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع . فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارتفعت مائة فى المائة ، والأجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع بأربعين رنيه . وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الأسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديستري كميات ضخمة من البن والكافو . ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة . وكان هذا خطأ كبيرا - ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) .

ومع ذلك استمرت موجة البيع . وفى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف . وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهباً أو فضة . وفى باريس اشتد تزاخم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضى ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي . واعتبر الشعب لو مسئولاً عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام » . وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحاولات هشمتم مركبته تهشيماً فى فناء الباليه - رويال - وأعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بأنه كان ضحية الخدع المالية ، وبأن الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة . وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع
الشعب عن البرلمان .

وفى اغسطس هبطت اسهم شركة المسبى الى ٢٠٠٠ جنيه بعد
ان بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت
الى عشرة فى المائة من قيمتها الأصلية . وفى أكتوبر تسرب نبا - سرى
من فم الى فم - بان الوصي سحب من المصرف الملكى ايان ازدهاره أوراقا
بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على
الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب أحد
صيافة المصرف الى بروسيا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت
اسهم شركة المسبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر الغى الوصي
المصرف ، وطرد لو ، وأعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من أكتوبر غادر
لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ،
وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد أودع مالا فى الخارج ،
فلم يأخذ الآن معه سوى ألفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى
بروكسل تلقى من بطرس الاكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع
بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زوجته
وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادئ التى أقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا
جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء
بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الخاصة
وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسى مؤقتا خربا فى
ظاهر الأمر ، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها
والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة
محجمة ، والتجارة الخارجية أصابها الركود ، والاسعار فوق طاقة
الشعب . ودعا الوصي اخوان « باريس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط
هذه الفوضى . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة
بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على أصحابها تفاوتت من ستة
عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، أما الجمهور الذى استنفد مسورة
غضبه فقد أذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئاً بقي بعد هذا الانهيار . فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة . وأفادت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان . وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى . وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة - وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى . وتضاعف عدد المالىين وازدادوا قوة على قوة . وكسب الذبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لانهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل اقتضاها عنها فى أى طبقة . وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل . وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسأل عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجور الاخلاقى للمجتمع الفرنسى . فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسى بقدر أتاح للوصى على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح .

٤ - الوصي

لقد نبهته أمه الالمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالشواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيته سيخشاهم بعد قليل ، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم (٣١) » . أما فليب ، الذى شكله مونتيني ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه . ورمز لروح نظامه بتركة فرساي وسكنى البالييه - رويال ، فى قلب باريس ومعمعاتها .

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة في المزيد من التيسير والخلوة رتب الا يسكن الملك الصبي فرساي بل القصر الريفى فى ضاحية فانسين . وبدلا من ان يدس له فليب السم كما أرجفت الشائعات ، عامله أرق معاملة ، وأبدى نحوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكرة للرعاية التى أغدقها عليه الوصي (٣٢) .

بعد ان دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالافراج عن جميع المسجونين فى الباستيل فيما عدا أولئك الذين عرف عنهم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجال قد سجنوا بمقتضى اوامر القبض المختومة lettres de cachet التى أصدرها الملك الراحل ، وأكثرهم جانسنيون لم تكن تهمتهم سوى الانشقاق الدينى ، ومنهم من طال العهد بهم فى السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم أنفسهم ، السبب فى سجنهم . مثال ذلك أن رجلا قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاما لم يحاكم قط او ينابأ بسبب سجنه ، فلما أفرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائرا مذهولا ، فهو لا يعرف انسانا فى باريس ، ولا يملك فلسا واحدا ، وعليه فقد التمس أن يبقى فى الباستيل الى آخر عمره ، وأجيب الى ملتصه .

ونفى من باريس ميشيل لوتليه ، كاهن الملك الذى تعقب الجانسنيين من قبل . ونصح الوصي على العرش الحزبين المتخاصمين فى الكنيسة بأن يهدئا من خلافاتهما . وأغضى عن البروتستنت المتسترين ، وعين عددا منهم فى وظائف ادارية . وأراد أن يجدد مرسوم نانت السماح ، ولكن اليسوعيين والجانسنيين اتحدا فى التنديد بمثل هذا التسامح ، كذلك فناه عن ذلك وزيره دوبوا الذى كان يحتال للظفر بقبعة الكردينالية (٣٣) . « ولم ينل البروتستنت الانصاف الذى أنكره عليهم الحزبان المتنافسان فى الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصي فولتيريا قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر التقى يقرأ رابليه فى الكنيسة (٣٥) ، أما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولها فى فرنسا لما تنطوى عليه من تهديد للإيمان المسيحى .

وكان فيليب - من الناحية السياسية - حاكما متحررا مستنيرا حتى حين زج بفولتير في السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميشليه الى ان يرى فيها ارهاصا بجمعية ١٧٨٩ التأسيسية (٣٦) . وامتلات مكاتب الحكومة بالرجال الالكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هددته بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذى كان بطبيعته أبيقوريا - فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان - سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفى بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته . . . وقد أبهجت الناس جدا ألفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، أى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذيبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم - وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطبق أى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان - الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعده به - أن يسجل بعض مراسيمه (أى أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ أغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور - وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالتزام بتسجيل مرسول ملكى . ومضى القضاء البائغ عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيين فى عبااتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهاز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى أو بالتآمر عليه ، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كأمرء من الدم الملكى . ورد

الادواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الأمر الذى أبهج الدوق سان - سيمون ، الذى رأس فى هذه الخطوة أعظم انجاز للوصاية ، وكانت أسمى اللحظات فى « مذكراته » .

على أن دوق مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الخرفاء الذين راحوا يخنزون الوصي بأهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، ألهم الا « الفايبيات » وأهاجى « الأشياء التى شاهدتها » المنسوبة لفولتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقة فى مؤامرة مع كيلامار ، السفير الأسباني ، والبيرونى رئيس الوزراء الاسباني ، والكردينال ملشيور دبولنياك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فلييب الخامس الأسباني ملكا على فرنسا ، على أن يكون الدوق مين كبير وزرائه . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقة فى سجنين منفصلين ، وأفرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق أنه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقة الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خلقه الشخصي ، قام فلييب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصير من الطرق أكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساي ، واحتفاظه بحاشية متراسعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » ممثلا فى جباية للضرائب أشد قسرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبديد . وفكر فلييب فى ضريبة دخل تصاعدية : وجربها فى نورمانديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها أبطلت بموته المبكر . وقد جاهد ليبقى فرنسا بنجوة من الحرب ، فصرح آلاف الجند ، ووطنهم فى الأراضى غير المزروعة . وأسكن الباقين فى ثكنات بدلا من أن يسكنهم فى بيوت الشعب . وبنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجميع الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الأكاديمية الملكية للعلوم ، والأكاديمية الملكية للماثورات والآداب البحتة ، والأكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وأنشا فى اللوفر أكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهياً لهم غرفاً في القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنتهم المختلفة . ولم تؤت تدابيره واصلاحاته ثمارها كاملة من جراء كابوس الدين وانهييار ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى .

ومن أفجع المآسي في تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذي وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوته وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله . فهذا الابن الذي أنجبه أب منحرف جنسياً ، ورباه رجل فاجر من رجال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزاً عن كبح جماح شهوة الجنس التي انغمس فيها . أقول ذلكوا « كان يمكن أن تكون له فضائل إذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادئ » (٤٣) . واذ كان قد أكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافتقد الحب أو السلوى في زوجته ، فإنه أولع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليقات في اسراف لم يعدله فيه حاكم خارج حريم السلاطين . واختار اصدقاءه من بين المعربين الذين كان يصفهم بكلمة noués (أي الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغالى ويزودونها بالمثيرات الجنسية (٤٤) . وكان فليب يلحق باصحابه في الباليه - رويال ، أو في فللته في سان - كلو ، ومعظمهم من شباب الاشراف ، وفيهم أيضاً بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب - في حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفان بالممثلات ومغنيات الاوبرا ، والخليقات ، في توفير اثاره الانثى لذكاء الرجل . يقول سان - سيمون ، ربما في شيء من التلوين المنافق :

« في هذه الحفلات كانت تعرض أخلاق كل انسان ، الوزراء وأصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هي الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة في الماضي والحاضر ، وكل قديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكانه ، ولم يعف من هذا النبش أحد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين . ولكن نادراً جداً ما كانت هذه الاحاديث تؤثر فيه أقل تأثير . وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون بأقذر الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون في التفوه بأفحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج وثلثوا بالخمير ، مضوا الى فراشهم ليعاودوا اللعبة ذاتها في الغد (٤٥) .

وقد أفصحت روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها في قصر تسلط محظياته عليه ، فنذر أن سيطرت عليه أحداهن أكثر من شهر ، ولكن المبعديات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة أخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى أصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجديديات في غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسة بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الأوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التي أثار « سممتها الرائع » و « وجهها الذي لا يدانيه في الحسن وجه في العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقاء الرواتب أو الاعانات أو المجوهرات ، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التي على شفا الافلاس . على أنه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه أسرار الدولة ، أو أن يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها في المرآة ثم سألها ، « أيمنك للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ اننى لا أحب ذلك أبدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه أن زال .

هذا العرييد ذاته كان يحب أمه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين في حلم . ومع أنه لم يحب زوجته ، فانه بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب أبناءه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون أن يزور في قصر اللكسمبورج كبرى بناته ، التي كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك ان زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارجحا بين الحرب والهدنة . فبعد ان أمسكته متلبسا بين أحضان امرأة ، وافقت على أن ترضي عن خياناته شريطة أن يغضي عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بأن يحمى الواحد صاحبه (٤٧) -

هذه الحفيدة - حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » - وسليمة أسرة بافاروية ورثت الجنون فى دمها ، وجدت أن ثبات الذهن واستقرار الخلق أمر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها وأخطائها من حدة طبع عات أرب كل من كان لهم صلة بحياتها . وقد استغلت نبالة أصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة ، وتحفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيانا ثمانمائة خادم (٤٨) . فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تستضيف سلسلة من العشاق . وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتها النابية ، وعجبها وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين .

ويبدو أنها لم تحب انسانا قط محبتها لأبيها ، وأنه لم يحب انسانا قط محبته لها . ولقد شاركته ذكاهه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه ، وكان حسنهما فى شبابها يضارع حسن أجمل خليلاته . واتهمتهما شائعات باريس - التى لا قلب لها ولا حرمة - بسفاح القربى ، لا بل زادت بانه اقترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) . وأغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلققتها « شلة » مدام مين (٥٠) . وقد رفضها سان - سيمون ، وهو أقرب الناس الى الموقف ، لانها افتراءات قاسية وضيعة . أما فليب ذاته فلم يعبا بنفيسها . وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢) ، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستاثرة (٥٣) .

ولم يقو على فصلها عن أبيها سوى رجل واحد - هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء . ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض أتباعها ، وولدت ابنة للكبتن . ثم ما لبثت أن تزوجته سرا . وتوسلت الى أبيها أن يأذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنوننا . ومرضت ، وأهملت نفسها ، فأصابتها حمى أنذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطاها اياه طبيبها (٢١ يوليو ١٧١٩) . وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات فى مخها . ولم يرض أى أسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرا اعمق الشكر حين سمح رهبان سان - دنى بايداع جثمانها في المدافن الملكية في كنيسة ديرهم . أما الأم فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الأب فقد دفن نفسه في فراغ السلطة .

ه - المجتمع في عهد الوصاية

كان ازدياد الثروة في فرنسا في الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حياة الحضر ، واضمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسية - كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللا في الاخلاق رمز له لويس الرابع عشر في شباب حكمه . وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما أحدثته الكوارث الحربية من تأثير منه ، كل أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلا ، وفرض أحرار الفكر الرقابة على مؤلفاتهم ، وستر الأبيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس . ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح ، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة في موجة من الزندقة والاستغراق في اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التي أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تسلط البيورتان (١٦٤٢ - ٦٠) . وأصبح التحلل من الاخلاق شارة التحرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعا من « الاتيكييت (٥٤) » .

كانت المسيحية آخذة في الاضمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمان طويل ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه . ففي ١٧١٧ شكا دبوى من كثرة الماديين في باريس (٥٥) ، وقال ماسيون في ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضىء على أصحابه مظهر التميز والفخار ، انه فضيلة توصل الى العظمة وتجلب للمغمورين شرف الالفة بأمير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الامير قبيل موتها في ١٧٢٢ تقول « لست اعتقد أن في باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، مائة شخص يدينون بايمان مسبحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى ارتعد فرقا (٥٧) » وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

بني التحول عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى الالحاد ،
ابنزي كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جرادو ، شأنهما شأن
التامبل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

وإذا كان المروق عن الدين قد شارك في اطلاق الإستهتار الخلقى في
الطبقة العليا ، فإن الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعي على أحداث
الفوضى الخلقية بين دهماً باريس . وقد حسب العالم لأكروا ان « الاشخاص
الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى
الأنواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن
الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شأنه بين أغنيائها .
وأفرت الجريمة في شتى أشكالها ، من النشالين في باريس الى قطاع
الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تستطع
ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها أحيانا يقنعون بشطر من الغنيمة (٥٩) .
وفي ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل في القبض على كارتوتن ،
قاطع الطريق الفرنسي الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزي) وحاصرت
خمسمائة من رجال عصابته التي جعلت السفر خطرا حتى على الملوك
. ولم يبق على الاستقرار الخلقى للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين
والطبقات الوسطى .

أما في طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المدن الطليقين ،
ومدمنى الأدب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخيليات ،
فقد بدأ أن المبادئ الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية
الا ساعة يلتقى فيها الناس في الكنائس أيام الاحاد . فاذا وفدت الزوجات
على باريس أو فرساي تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقى المنافق ،
الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجها
جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التي
تتقصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك نافست النساء
الرجال في ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفاظ على
الاسرة ، وأملاكها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عرف العصر
بوالطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج في العصور
الوسطى يعتمد عليه في أن يقود الى الحب ، أما الآن فننادرا ما كان

الزواج يقود إلى الحب أو الحب إلى الزواج ، وحتى في الزنا لم يكن هناك كبير ادعاء للحب . على أن العهد لم يخل من زوجين وفيين يتالقان كأنهما استثناء جرى للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال ذلك دوق ودوقة سان - سيمون ، وكونت وكونتيسة تولوز ، ومسيو ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل - ايل . وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات إلى جدات هادئات مثاليات واثكفا بعضهن ، بعد أن بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، إلى أديرة مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن أجراً نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتنسان ، التي أطلقت فجأة من الدير وهي في الثانية والثلاثين إلى سلسلة متلاحقة من العلاقات الغرامية . وكان لها أعضارها : فابوها زير نساء موفق ورئيس برلمان جرينويل ، وامها لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت واعية بجمالها الذي يتلف على أن يباع . وكانت أختها الأكبر منها ، مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيراً في فوضى علاقاتها الغرامية ، وقد قالت في اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة مسلكها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقولون لي ذلك فأصدقهم ، وعليكم أن تحزروا الباقي بعد هذا (٦١) » . ورسم أخو كلودين الأكبر منها قسيسا ، وشق طريقه إلى قبعة الكردينالية وإلى منصب رئيس أساقفة ليون متوسلا إلى هدفه بالعديد من النساء ، أما الأب فادخل كلودين ديرا في منفلوري ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة ستة عشر عاما في حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفي ١٧١٣ ، حين بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبأت في حجرة الشفالييه ديتوش ، وهو ضابط في المدفعية ، أصبحت بمعونته (١٧١٧) أم الفيلسوف دالمبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هذا الوليد ، فتركته على سلم كنيسة سان - جاك - لرون بباريس . وانتقلت إلى ماتيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون ، وبعد أن جلست إلى مثال ينحت لها تمثالا عاريا (٦٢) فيما روى ارتمت بين أحضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيرا ، وقد حاولت أن تحوّل قبلاتها إلى وظيفة كهنوتية ذات إيراد لأخيها المحبوب ، وأجاب فليب أنه لا يحب الغواني اللاتي يتحدثن في شئون العمل في

«الفرائض» (١٨٣٣) « وتلمر بان توصل ابوابه في وجهها . ثم نهضت من
كبرتها تلك وغزت قلب ديوا . وسنلتقى بها مرة أخرى .

وفي وسط هذا القلب الاخلاقي السريع واصلت بعض نساء باريس
تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين أصحاب الألقاب ،
والذكاء ، والجمال ، في الصالونات . وكان أكثر المجتمعات تهديبا في
العاصمة يلتئم شمله في مبنى الأوتيل دصلى الرائع العمارة ، هناك كان
يحضر الساسة والماليون والشعراء - فونتنيل في ستيناته الصامتة ،
وفولتير في عشريناته المندفعة . وكانت جماعة أكثر جذلا تجتمع في
الأوتيل دبويون ، الذي خلده لساج في لحظة غضب ، ذلك أنه دعى
هناك ليقرأ مسرحيته « توكاريه » ، فوصل متأخرا ، فوبخته الدوقة في
خيلاء قائلة « لقد ضيعت علينا ساعة » ، فأجاب « سأجعلكم تكسبون
ضعفى هذا الوقت » ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون
مدام دميين في سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه ، التي
ستصبح البارونة دستال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد
كتبت « مذكرات » بارعة (نشرت في ١٧٥٥) تصف المهازل ،
والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التي لم تترك
مكانا يذكر للاحاديث التي تخللت « ملاهى سو » .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى ادارته آن تيريز
دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، في الأوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة
الاهلية) . وقد واصلت هذه المرأة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية
الصاخب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التي سادت سنوات لويس
الرابع عشر الاخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى
الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد أولعت ، كالمركيزة
دشاتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت أحيانا (كما يقول فولتير) تتكلم
فوق ما يفقهه رأسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقباً نبيلاً ، ويحرك
مشاعر أى ميتافيزيقى ، وكانت في كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبلاء ،
وفي كل أربعاء الكتاب والفنانيين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو
وماريفو . وفي اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقون المحاضرات
والمؤلفون يقرءون ما يزمعون اصداره من كتب ، والشهرة الأدبية

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيقة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها في عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهذبات ، المثقفات ، المتحضرات ، اللاتي يجعلن تاريخ فرنسا أكثر القصص فتنة في العالم .

٦ - فاتو والفنون

عكست ثورة في الفن ذلك التغيير الذي طرأ على السياسة والاخلاق . فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية في حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مياهج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنايس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالأوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ - ٢٢) . واذا استثنينا هذه العمائر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجما ، وحليتها أكثر رقة وصقلا . وبدأ الباروك يتحول الى الروكوكو* ، أى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه أناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامح العابت الذى لا يمكن التنبؤ به . وأصبح الولع بالصقل البديع ، والألوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطراز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، وأخفيت الأركان ، ونقشت الحلى والقوالب المعمارية فى اسراف . وهجر النحت فخامه فرساي الأولمبية الى صور أصغر ، صور الحركة الرشيقة والأغراء العاطفى . وتجنب الأثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة أكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحببيين اللذين يكرهان عاطف البعد . وأرسى شارل كرمسان كبير نجارى الوصي ، طراز اثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرايا ، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

* ربما كانت هذه الكلمة rococo أصلها rocaille وهو لفظ استعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات أو تجميلها بالصخور والأصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى البروكوك . فحين نقل الحكومة من فرساي الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الاكثر خفة ، ووجنه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن . وكان راعيا للفن بحكم منصبه وبثفرده فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته أصلا ، سخرى فى البذل للفنانين . ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة ، ولا مواضيع التصوير التقليدية - مواضيع الدين أو الأساطير أو التاريخ ، بل الروائع الصغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الأصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلوى المرصعة بالجواهر ، والأنية الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات الصينية الغريبة الأشكال ، ورسوم النساء الفاتنات اللاتى يلبسهن روبنز أو تترزيانو رداء الطبيعة أو يرفلن فى أبواب فيرونيزى الفاخرة . وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة فى الباليه - رويال على مصاريعها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خليلاته اللاتى يطلبن وينلن ما يطلبن منها لضارعت مجموعته أفضل نظائرها . ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسمهم لينظر ويتعلم . تحدث الى كبير مصوريه ، شارل أنطوان كوابيل ، فى أدب وتواضع تميز بهما فقال : « اننى يا سيدى لسعيد وفخور بأن أتلقى نصيحتك وأنتفع بدروسك (٦٥) » . ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلا رفيع التحضر .

وأفصحت روح العصر عن نفسها بأجلى بيان فى التصوير . فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الاكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حررهم الوصي ورعاتهم الجدد . واستجابوا عن طريب خاطر للطلب على الصور التى تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح ، والألوان الدافئة لأثاث الوصاية وسجفها ، والحفلات المرحة فى غاية بولونيا ، والألعاب والتنكريات فى قصر سو ، والأخلاق المتراخية التى اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الاوبرا والراقصات . وحلت الأساطير الوثنية محل قصص القديسين . القاتمة المتجهمه ، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصين ، أو تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقاله بأن

يجوب فى حرية خلال أحلام غريبة ودخيلة ، وأخذت الرهويات الحالة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور أشخاص المشترين محل صور مآثر الملوك وجلائل أعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساي بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه - رويال نساء فى أثواب طويلة فضفاضة ساحرة . أما نيكولا دلارجلير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة أخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صورته ، وهو يبدو فى خيالاته وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكساندر فرانسوا ديبورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الآن مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحة « منظر الايل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لموان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان - سوليبيس بروح الخشوع والورع ، ثم أشاع الدفء فى صالون هرقول بفرساي بأجساد شهوانية سيقلدها بوشيه من بعده . وأدخل كلود جيو ، مصمم مناظر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحية ، أسلوب « المهرجانات الريفية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه أنطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته أول الأمر التأثيرات الفلمنكية - صور روبنز ، وأستاذ ، وتنبيه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يمسك ريقه يفضي لأصابته بالسل . ولكن حمى أخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا - وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس أمسياته وعطلاته لرسم الأشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدي - ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم أحداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، والعباهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الأكبر حين قصرتهم مدام دمانتون على البانتوميم (التمثيل الايمائي) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتو ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أسي ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيات ثيابهم الغريبة ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله آثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على أية حال تشاجر الأستاذ والتلميذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بها ماري مديتشي ، ووجد فى الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للآسي . وقد وصفها فاتو فى لوحته . « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والاسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتو عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمتها الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينل الجائزة الثانية ، ولكن الأكاديمية ألحقته عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الأبحار الى جزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وشفقت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة بيري بزخرفة قصرها الريفى « لاموييت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكأنه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين آخر . وقدم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتو الماكل والمسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) أروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورسم لكروزا أربع لوحات زخرفية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالتurf، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها بارييون عصريون يفحصون صوراً فى حانوت ، وفوق الذرعة

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهن الذي تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذت بيتا فى نوجن ، قرب فانسين ، معللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل الممرض العصبى الحى ، السريع الاعياء ، النادر الابتسام ، القليل المرح - يقصي حزنه عن فنه ، فصور الحياة كما رأتها أحلامه وأمانيه - مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، وأغنية للفرح الملهوف . واذ كان أضعف من أن يجرى وراء شهوات الحس ، فإنه احتفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلياقة فى الخلق انعكست فى مزاج انتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فأضفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » أغلى وأشف ما استطاع تخيله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشهد درامى ، والتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وفاجأ « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته أمام خلفيات حاملة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمائلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تمثال وثنى يردد به صدى بوسان ، كما نلاحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متهيب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلتمس ودهن ، وقد انفعل بأعطافهن الدافئة أقل من انفعاله ببهاء شعورهن وانسياب أثوابهن المتمسوج . فألقى على ثيابهن كل سحر ألوانه ، وكأنه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك السر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، واعجابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى أشهر صورة قاطبة ، وهى « الابحار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استسلمن لاثارة الرجال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا . هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملبسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الأكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها . وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا أغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة - واستجابت باريس باختيارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحيى مباحج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلم شبابه . وغدا بلقبه الرسمى « مصور الاعياد المرحية » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حاملة فى ريف هادىء مطمئن ، ويمزجون بين « ايروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد . على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطبيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا أنهن خبرن شيئا من الألم ، أو ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن . تلك هى ميزة فاتو - الترجمة المرهفة للحظات الكمال التى لا بد ان تنقضي .

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته . وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لان الطباشير أو القلم بلغ هنا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تميز فى رسم العيون والوقفه والمروحة المعابثة لم تكشف عنها قط ألوان الزيت كل الكشف (٧٣) . واغرمت نساء باريس غراما شديدا بأنفسهن كما رأينها فى أشواق الفنان الميت . واليست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها بأسلوب فاتو (الالفاتو) ، ومشت واتكات بأسلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى أشكال خياله واللوانه . ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « أرابسك » الركوك الرشيق . وتلقف الفنانون أمثال لانكريه وباتير تخصص فاتو ، وصورا المهرجانات الريفية ، وأحاديث الغزل ، وحفلات الموسيقى فى المنتزهات وحفلات الرقص على الخضرة .

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب ، ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة
السنة التالية كان ذكرى لفاتو . وقد استمر تأثيره حتى بوشيه ، ثم
فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينوار ، ووجد التاثيريون فى أسلوب
ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال
جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ - المؤلفون

زكا الأدب فى ظل أخلاقيات عصر الوصاية الهيئة اللينة وما سادها
من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها .
وأفاقت المسارح والأوبرا من عبسات الملك الراحل ومدام دمانتون ،
وكان فليب ، أو بعض أهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الأوبرا ،
أو الأوبرا - الهزلية ، أو « المسرح الفرنسى ، أو مسرح الايطاليين .
واحتفظ المسرح الفرنسى بتمثليات كورنى ، وراسين ، وموليير ،
ولكنه فتح أبوابه لتمثليات جديدة كمرحية فولتير « أوديب » ، التى
سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا اعظم كتاب هذا العصر محافظين
شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان الان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ،
ينتمى روحا وأسلوبا للقرن السابع عشر وان عاش حتى ١٧٤٧ . وقد
على باريس بعد ان تلقى العلم على يد اليسوعيين فى فان ، فدرس
فيها القانون - وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد ان
قضى فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة
زوجته وأبنائه بتأليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا ان رئيسا
دينيا عطوفا أجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم
بعض التمثليات عن الاسبانية ، والتتمة التى كتبها افيلانيدا لرواية
« دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشيطان الأعرج » لفيليت
دى جويفاررا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الأعرج » (١٧٠٧)
التى صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى
باريس ، ويرفع اسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشف
لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطان الغافلين .
والحصيلة فضح مرح لكائد البشر القذرة ، ونفاقهم ، ووذائلهم ،

وحيلهم . فترى مثلا سيدة تفاجأ بزوجها فى الفراش مع خادمه الخاص فتجل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخادم يعتدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون . واندفع كل انسان تقريبا لشراء الكتاب أو استعارته ، وقد ابهجه أن يرى افتضاح غيره من الناس . كتبت مجلة فردان فى عدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف فى دكان باربان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » . وقد وجد سانت - بوف شبه خلاصة للعهد فى ملاحظة قالها أسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتها ونحن خصمان لدودان (٧٧) » .

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى مولير بهزلية تهجو رجال المال . وقد نمى الى بعض هؤلاء نبا « توركاريه » هذه سلفا فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتهم قصة - ولعلها أسطورة - وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠.٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الدوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها . وتوركاريه هذا مقاول وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الفاقة التى جرّتها الحرب . وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس المثابرة التى يبتز بها الناس . يقول الخادم فرونتان « عجبا لمسار حياة البشر . نحن نلتقط مغناجا ، والمغتاج تلتهم رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » .

وربما كان الهجو هنا ظالما مرهقا بشهوة الانتقام . وقد وفق لساج ، فى أشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية أكثر تعقيدا ، وبموضوعية أكبر . وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتلانى » التى نسج فيها أيضا على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك - بأسلوب روايات التشرّد - خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة - عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء . و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئا ، رقيقا ، مثاليا ، محبا للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور . يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصابتهم ويتعلم حيلهم

وإماليهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسباني ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل أن التحق بالقصر كانت طبيعتي مترفة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبي أقسى من أى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الأحاسيس الرومانسية للصدقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابويه ويرفض أن يعينهما . ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبئا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلق عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها « الذين أومن مخلصا بأننى أبوهم (٨١) » .

وأصبحت « جيل بلاس » أحب الروايات للقراء الفرنسيين ، الى أن تحدثت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . وأحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الاولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها . وقد استعان على معاشه فى شيخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية أخرى تسمى « أعزب سلمنقة » ، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الأربعين ، ولكن كان شى قدرته أن يسمع ببوق ، فيا له من رجل محظوظ يستطيع أن يصم أذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال أصدقاؤه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء أقل مما تجده « مذكرات » لوى دروفزوا ، دوق سان - سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط أنه كان واحدا من « أدواق ونبلاء » فرنسا ، الذين لا يبرزهم فخامة غير أعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يغتفر قط للويس

الرابع عشر تفضيله كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الأبناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فوق « الأدواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى أول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمت الى نيا موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فورى لتقديم احترامى للملك الجديد . . ومن هناك ذهبت الى دوق أورليان ، وذكرته بوعد قطعه على نفسه ، وهو أن يسمح للأدواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رعوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد أخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى أمر خليلاته ، وواساه فى أحزانه وهزائمه . واذ كان على كذب من الأحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها فى ١٦٩٤ - من زاوية طبقته - منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . أما هو فقد مد فى أجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافق طبيعته . وقد حكمت عليه المركيزة كريكى بأنه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد ويأكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبثه بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظلما فى أحكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوه بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارستقراطية ، ولكن مجلداته العشرين سجل مفصل نفيس لكاتب ذى عين لماحة ثاقبة وقلم سيال ، فهى تمكنا من أن نرى مدام دمانتون ، وفنيلون ، وفليب أورليان ، وسان - سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان - سيمون يقرب فى هذا من بوريين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن ينقضى قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ - الكردينال العجيب

لو صدقنا سان - سيمون لكانت سيرة جيوم دبوا النقيض لأعظم مبادئ شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة أخرى الى سان - سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من أكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسية ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديثه ثقيل ، متقطع ، غامض أبدا ، زيفه مكتوب على قسمات وجهه ، ... ما من شيء فى رأيه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للإيمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذه أن يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع ... والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، لينا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس بيسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب انه لم يستطع ، وفيه هذه النقائص ، أن يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى أوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لأخلاق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بان يؤدى بالمؤلف القاسى الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يجب أن نعترف بان دكلو يتفق مع سان - سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلدته الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من أحضان فليب . على اية حال لابد انه أوتى شيئا من الفطنة العقلية ، لأنه أدار الشؤون الخارجية ادارة لا بأس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنه خيرا لفرنسا . ذلك ان حزب الأحرار فى انجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتناكر لمعاودة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش اسبانيا ، وخيل اليه أن إبرام اتفاق مع انجلترا سيزيح العقبات عن طريقه . فلو ان انجلترا ، واسبانيا ، والنمسا

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلق أعظم جديد ،
لطوقت فرنسا بالأعداء من جديد ، ولأبطلت كل سياسات ريشليو ولويس
الرابع عشر وانتصاراتهما . ومنعا لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب
اتفاقا مع إنجلترا والأقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٧ .
وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربي ، ولبريطانيا ؛
فلو أن فرنسا وأسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد
سيطرة إنجلترا على البحار . كذلك كان نعمة للملكية الهانوفرية
الجديدة غير الآمنة في إنجلترا ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالأمان تبذل مزيدا
من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزي

وغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة .
فاشترك البيروني ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلمار ودوقة مين
للإطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا . واكتشف دبوا
المؤامرة ، وأقنع الوصي على كره منه بأن يحذو حذو إنجلترا في اعلانها
الحرب على أسبانيا (١٧١٨) . وأنهت معاهدة لاهاي (١٧٢٠) هذا
الصراع . ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس
الخامس عشر ، وبنات الوصي بأبناء فليب . وعقدت الزيجات على
جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في
حفل لاحتراق المهرطقين (٩٠) . ولما كانت الأميرة الأسبانية ماريا آنا
فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلا بد أن يتقضي زمن قبل أن
ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فاذا حدث أن مات
الملك الصبي خلال هذه الفترة ، فان الوصي يصبح ملكا على فرنسا ،
ويصبح دبوا وزيره الدائم .

وتسلق بدهاء خطوة فخطوة . ففي ١٧٢٠ عيّن رئيس أساقفة
على كمبرى ، وبمفارقة مضحكة من مفارقات التاريخ طلب ملك
بروتستنتي هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك ان يقنع البابا بأن
يخلع على دبوا هذا الكرسي الرياسي الشهير ، الذي شرفه قبيل ذلك
فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى الورع ماسيون في
الاحتفالات التي أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من
٤ - قصة الحضارة .

الفرنسيين. جماع الرذائل - أما ديوا فاحسن بانه لم يكافأ بما يكفي جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المال الفرنسي ليُجْلِس على عرش البابوية مرشحا تعهد بان يبعث اليه بقبعة حمراء (أى قبعة الكردينال) . وأوفى أنوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف ، وأصبح رئيس الأساقفة الكردينال ديوا (١٦ يوليو ١٧٢١) . وبعد سنة عين وزيراً أول للملكة براتب قدره ١٠٠.٠٠٠ جنيه . واذا كان يتقاضى ايراداً قدره ١٢٠.٠٠٠ جنيه من منصب رئيس الأساقفة ، و ٢٠٤.٠٠٠ من سبعة أديرة ، و ١٠٠.٠٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشاً انجليزيا قدره سيمون بمبلغ ٩٦٠.٠٠٠ ، فقد بلغ ايراده السنوي الآن نحو ١.٥٠٠.٠٠٠ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زوجته - التي كانت لا تزال على قيد الحياة - ما يبعثه اليها من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن أدركه . ففي ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثالثة عشرة ، وكان ينعم بالعيش في فرساي ، طلب الى فليب أن يواصل حكمه للمملكة ، وظل ديوا اكبر مساعدي فليب . ولكن حدث في اول اغسطس أن انفجرت مئانة الكردينال ، ومات فجأة وهو مثقل بأمواله . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة أجله هو أيضا انتهت . ذلك انه بعد ان اتخم بالنساء ، وتخدّر بادمان السكر ، وكف بصره ، وفقد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، في نصف وعي ، ازدراء الناس لذلك النظام الذي بدا في جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته في انحدار رسمي واحتقار شعبي . وأنذره الأطباء بان أسلوب حياته سيقضي عليه ، ولكنه لم يكثرث ، فلقد آترع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج في ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعاً خليلته مؤقتاً . وكان يومها في التاسعة والاربعين .

على ان فليب أورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرذائله رذائل الجسد لا النفس : كان متلافاً سكيراً فاسقاً ، ولكنه لم يكن أنانياً ، ولا قاسياً ، ولا خسيساً ، بل كان رحيماً ، شجاعاً ، لطيفاً . كسب مملكة بمقامرة ، وتركها بقلب خلى ويد مبسوطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تفتح له سلطته أى انضباط . انه لمنظر محزن حقا - منظر رجل لامع الذكاء ، سمح الرأي ، يكافح لاصلاح ما أفسده فى فرنسا تعصبَ الملك العظيم ، ثم يترك الاهداف السامية تغرق فى سكر لا معنى له ، ويضيع الحب فى دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الاخلاقية ، أشد الفترات خزيا وعارا فى تاريخ فرنسا . فالدين الذى كان نافعا فى القرى جلب على نفسه العار فى القمة لأنه شرف رجالا من أمثال دبوا وتنسان ، ففقد بذلك احترام الفكر الذى أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسى بحرية نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الزحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التى تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتياحية فلسفة أبيقور ، وانصرفت الى اللذات الأبيقورية (أى الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر، عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ، ولكنه أعطى الاقتصاد الفرنسى حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات الثمان انتشار التعليم المجانى ، وتحرر الفن والأدب من الوصاية والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الابحار الى سيطيرا » ، و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل موتسكيو الفارسية » . ولقد زجت الوصاية بفولتير فى السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبدا فى فرنسا حتى فى ساعة انتصاره وموته .

٩ - فولتير والباستيل : ١٥١٧ - ٢٦

فى مذكرات سان - سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا اثار ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن موثق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى .. الى تل فى ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه أبياتا من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لآلهو بتدوين هذا الحدث القافه لولا أن آرويه هذا ، الذى أصبح شاعرا وأكادمية كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح كذلك .. . شخصية فى دولة الادب ، لا بل بلغ شيئا من الأهمية بين بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذى بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بأنه « نحيل ، طويل ، لالحم فيه ولا أرداف (١٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (أو مضيفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتالق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . واذا لمع فى قصر سو على الأخص ، فانه أثلج صدر دوقة مين بهجوه للوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرابط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بأنه كان خيرا له ان يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموه . وأسوأ من ذلك أنه فيما يبدو اذاع ابياتا عن أخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير أنه كاتبها ، ولكن الأبيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واصل خطة الانكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية مغتفرة من رقابة مصلته على أصحاب الأقلام . أما الوصي فكان فى وسعه ان يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لانها كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من السخریات الموجهة لابنته ، لانها كانت صادقة فى أغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ أصدر أمرا « بارسال السيد آرويه الابن الى تل » - وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمداينها الكريهة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الأب آرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل الى صلى - سير - لوار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنثذ ، سليل الوزير الأكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث أن وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه براعته ويلتمس اطلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى أرجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاعة حيناً ، وفى مطحية فى كثير من الأحيان ، وفى ذكاء دائما - حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدأت كل جملة فيه بكلمة « رأيت J'ai vu » مثال ذلك :

« رأيت الباستيل وألف سجن آخر مملوءة بمواطنين شجعان
ورعايا أوفياء . رأيت الناس أشقياء يرسفون في عبودية قاسية . رأيت
الجند يهلكون جوعا ، وعطشا . . . وسخطا ، رأيت شيطانا في زى
امرأة . . . يحكم المملكة . . . رأيت البور - رويال وقد هدم . . . رأيت
- وهذا ينتظم كل ما رأيت - يسوعيا يعبد . . . رأيت كل هذه الشرور ،
وأنا لم أجاوز العشرين بعد (٩٥) » .

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام
حمامنتون ، ولا بد أن كاتبها عدو جانسنى لليسوعيين لا شك مستهتر
لا يزال يحتفظ ببعض الحب في قلبه لجماعة اليسوعيين . أما الكاتب
الحقيقى فهو أ. ل. لبرون ، الذى التمس بعد ذلك الصفح من فولتير
لأنه تركه يتحمل تبعه كتابتها (٩٦) . ولكن السن المتقولين امتدحت
آرويه على القصيدة ، وألحت عليه الجماعات الأدبية فى القائها ، ولم
يصدق أحد انكاره تأليفها (الا صاحبها) . واتهمته الشائعات التى
نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية - وبحق فيما يبدو - فضلا عن
قصيدة « رأيت » المذكورة ، ومطلعها *Puero regnante* . . . يقول
كاتبها ما ترجمته « صبي (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور
بتسميم خصومه وغشيان المحارم يحكم ، . . . وثقة الشعب تنتهك
(افلاس مصرف لو) . . . والبلاد يضحى بها طمعها فى تاج ،
وميراث - يعجل ميقاته بخسه ، وفرنسا على شفا الدمار (٩٧) » .
وفى ١٦ مايو ١٧١٧ أمر خطاب ملكى مختوم بان « يقبض على السيد
آرويه ويودع الباستيل » . وفوجيء الشاعر فى مسكنه ، ولم يسمح له
بان يأخذ غير الثياب التى يرتديها .

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سوزان دليفريه ،
واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغتفر لها آرويه
خيانتها فى تفسف - « علينا ان نحتمل هذه التواقه (٩٨) » وبعد
سنوات مات لفيفر فنظم فولتير فى ذكراه ابياتا تبين موهبة الشاعر الشاب
فى قرص الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التى كانت دائما أعمق
فى نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان)
فى أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا . فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الأخطاء الرقيقة ، كل أولئك ربط بين قلوبنا الثلاثة . إلا ما كان أسعدنا ، إذ لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين . كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهموم ، لا يشغلنا التفكير في المستقبل ، رغباتنا كلها تحسدها مباهجنا الراهنة - فأى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا أفضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركيز جوفرينه ، وأبت أن تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهي أن « كل الماسات واللآلئ التي تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتها في الأيام الخالية (١٠٠) » . ولم يرها ثانية حتى عاد إلى باريس بعد إحدى وخمسين سنة ليموت ، عندها أصر وهو في الثالثة والثمانين على زيارة المركيزة الأرملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه أيضا أرق قلب في الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجننا لا يطاق . فقد سمح له بأن يرسل في طلب الكتب ، والأثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقيّة النوم ، والعطر ، وأن يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مأمور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الألياذة من الكتب التي أرسل في طلبها ، وسأعل نفسه : لم لا يناقش هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير ؟ إن في التاريخ الحي رجلا هو هنري الرابع ، إنسان مرح ، جسور ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المغامرة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل في يده سلاحا فتاكا ، لذلك كتب النصف الأول من ملحمة بين سطور الكتب المطبوعة .

وأفرج عنه في ١١ أبريل ١٧١٨ ، ولكنه منع من البقاء في باريس ومن شاتنيه القريبة من سو كتب إلى الوصي رسائل يلتمس فيها الصفح ، ولانبت قناة الوصي ثانية ، وفي ١٢ أكتوبر أصدر اذنا « للسيد أرويه دفولتير بالمجيء إلى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر أن هذا كان حوالى فترة سجنه فى الباسقيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا . وظن بعضهم (١٠٢) انه جناس تصحيفى *anagram* أى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة *Arovet L(e) J(eune)* باعتبار الـ *U* هى حرف *V* والـ *I* هى حرف *J* - أما المركيزة دكريكى (١٠٣) فردته الى كلمة « فوتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته ، ولم يرث معها أى حقوق سيادية ، ولكن آرويه ، كبلزاك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم «*de*» بحق العبقرية ، ووقع - كما فى اهداء تمثليته الاولى - بهذا الاسم « آرويه دفولتير ») ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى أى بلد فى أوربا .

وكانت تلك التمثيلية - أوديب - حدثا فى تاريخ فرنسا الأدبى . لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين ألا يكتفى بتحدى كورنىي ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس أيضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق م . أضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التحريض بالعلاقات بين الوصي وابنته - وهى بالضبط . التهمة التى سجن بسببها آرويه . وقد فسرتها هذا التفسير دوقة مين واغتنبت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثليته أثناء وجوده فى قصرها . وطلب فولتير بجرأته المؤلفه الى الوصي أن يأذن له باهدائه التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه أذن باهدائها لأمه . وأعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ . وتكون حزبان من رواد مسارح باريس - أنصار الوصي ، وأنصار دوقة مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صيحات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة . ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر أحد الفريقين ، وأخرى تسر الفريق الآخر . فارضت الفريق المناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النفقة (كما فعل فليب) ، وأرضى اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى - لجران ؛ أما أحرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبيتين من الشعر وردا فى المشهد

الأول من الفصل الرابع ، بيتين سيصبحان الأنشودة التي تتردد في حياة فولتير . « ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل ، فسذاجتنا هي التي تصنع علمهم كله » وصفق كل فريق بدوره ، وفي النهاية ظفرت المسرحية باستحسان الجميع . وتقول رواية قديمة أن والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية في أولى ليالي عرضها ، وكان لا يزال يتميز سخطا على ولده الحقير السيء السمعة ، ولكنه بكى اعتزازا بروعة الشعر وانتصار التمثيلية .

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل ، بلغت خمسة وأربعين يوما . وأطراها حتى فونتنيل المكتهل ، ابن أخت كورنيي ، وان أبدى لفولتير أن بعض أبياتها « بالغة الشدة تضطرم نارا » . وأجاب الفتى المندفع بتورية فظة : « لكى أهدب نفسي سأقرأ رعوياتك (١٠٤) » وأصرت باريس على أن ترى في أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي ، وفي جوكتا شخص ابنته . وتصدت دوقة برى (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة ، فحضرت التمثيلية عدة ليال . أما الوصي فأمر بإخراجها في مسرح قصره ، ورحب بالمؤلف في بلاطه .

وبعد بضعة أشهر نشر شاعر أفاك ، لم يعلن عن اسمه ، قصائد سماها « Les Philippiques الفليبيات » ، وهي هجائيات اتهمت فليب بأنه يبيت تسميم الملك الصبي واغتصاب العرش . واشتبه الكثيرون في فولتير مؤلفا للقصائد ، فأكد براءته ، ولكنه كان قد كذب في حالات كهذه كذبا صارخا فلم يصدقه الآن أحد الا المؤلف . وبراه فليب لعدم كفاية الأدلة على التهمة ، واكتفى بنصحه بأن يغيب حينما عن نعيم باريس . فعاد الى شاتو صلي (مايو ١٧١٩) . وبعد سنة سمح له بالعودة الى العاصمة ، وهناك ظل فتى الارستقراطية المدلل فترة من الزمان .

وإذ كان مؤمنا بان المال حجر الفلاسفة ، فقد استخدم ذكاه الحاد في فهم مشكلات المالية وحيلها . وسعى لمصادقة المصرفيين ، وأجيز بمكافاة سخية للمعونة التي قدمها لأخوان باريس « للحصول على عقود

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) « . وكان بطلنا من استغلاليى الحرب . وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، وأقرض النقود بالربا . وفى ١٧٢٢ مات أبوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٢٥٠ ر٤ فرنكا . وفى تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصي معاشا قدره ٢٠٠٠ ر٢ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا . وعمما قليل سيصبح مليونيرا ، وعلينا ألا نفكر فيه ثائرا ، الا فيما يتصل بالدين .

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية - آرتمير - (١٥ فبراير ١٧٢٠) . فجرى من مقصورته الى خشية المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه بأوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » . واستعاد الشاعر كبريائه فى غير مشقة حين استمع الوصي نفسه الى قراءة من القصيدة . وكان حينما ذهب يقرأ جزءا منها . وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فللتها ، لاسورس قرب أورليان ، فأكدا له أن ملحمة تبرز « جميع الأعمال الشعرية التى صدرت فى فرنسا (١٠٧) » . وتظاهر بأنه يشك فى صدق هذا الزعم .

وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وسمع بالربوبيين الذين يكدرون صفو المسيحية فى بريطانيا . وخامرته الظنون بأن انجلترا سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة . ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبل ان يلتقى به أو يقرأ للربوبيين الانجليز . وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة مارى دروبلموند بأن يصحبها الى الأرض المنخفضة . وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء الفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهو فى الثامنة والعشرين . وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو ، أثنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى .

أما فولتير ، الذى قلما كان يطبق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو
عنوانها « قصيدة غنائية للأجيال القادمة » بقوله « أتعلم يا سيدى أنسى .
لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) »
وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير
وكونتيسة يواصلان رحلتها الى هولندا كشفت له عن شكوكها الدينية ،
وسالته عن آرائه . واذ كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة
شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف
بها فولتير الا بعد أربعين سنة . وكل شاب مسيحي مرهف الحس
سيتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن أنت تودين أيتها
الجميلة أورانى (اسم لأفروديت) وقد بعثت بأمرى فى هيئة لوكريتيوس
جديد ، أن أمزق أمام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن
أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الأكاذيب المقدسة التى تزخر
بها الأرض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدراء أهوال القبر ومخاوف الحياة
الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى أريد
أن أحب الله ، وألتمس فيه أبى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا
اللاهوت المسيحى ؟ « طاغية ينبغى أن نكرهه . خلق البشر » على
صورته « ليجعلهم حقراء ، وأعطانا قلوبا آثمة ليكون له حق عقابنا .
جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بالام رهيبه . . . أبدية » . وما ان خلقنا
حتى فكر فى اهلا كنا . فامر المياه بأن تغرق الأرض . وأرسل ابنه ليكفر
عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال
لذا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الله الذى يمتدح
كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكأنه ينتظر بروح النار أن يقذف باكثرنا
الى الجحيم ، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط « لست أتبين
فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبده ، وسأشينه بمثل هذه
الاهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والالهام الحى
فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظرى الى هذا المسيح ، القوى المجيد . . يدوس الموت تحت
قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من ابواب الجحيم . ان مثله

مقدس ، وفضيلته الهية . ويعزى سرا تلك القلوب التي يضيئها بنوره ،
وفى أفدح الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد أقام تعليمه على وهم
وخداع ، فان من النعم أن نخدع معه » .

وفى الختام يدعو الشاعر أورانى ان تستقر على رأى فى الدين
واثقة كل الثقة بأن الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبك ، لن
يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى أن نفس الانسان البار ثمينة أمام
عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى أن الراهب البوذى المتواضع ،
والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى
(قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمغ روحه » .

ولما عاد فولتير الى باريس أقام فى الأوتيل دبيرنيير بشارع بون
وطريق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتماع
للأعيان فى الشاتودميزون (على تسعة أميال من باريس) ، حيث كانت
أعظم ممثلات العصر أدريين لكوفرير ستقرا تمثليته الجديدة «ماريان»
ولكن قبل ان يحل موعد الحفل أصيب بالجدرى ، وكان فى تلك الايام
يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر
الموت . وهرب الضيوف الآخرون ، ولكن المركيز دميزون استدعى
الدكتور جريفيه من باريس « وبدلا من المنبهات التى تعطى عادة فى
هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) »
ولما كان لهذه الاكواب المائتين الفضل فى « انقاذ حياتى » . ولم
يتمثل للشفاء الا بعد شهور كثيرة ، والواقع أنه بعد هذا كان يعالج
نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحيها ذلك
البدن الهش الذى فرض عليه أن يژوى نار صاحبه الأكلة .

وفى ١٧٢٤ بدأ تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة .
لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمنى . واتخذت الملحمة مذبحه
القديس برتلميو نصا لها ، وتتبع الجرائم الدينية خلال العصور ؛
الأمهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الآله ملخ ، وأغا ممنون
يتهيا لتقديم ابنته قربانا للآله التماسا لقليل من الريح ، والمسيحيون
يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؛ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمها المعونة لهنرى نافار ، ووصفت معركة أفريه ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاثوليكية ، ولكنها انتقدت البابوية لأنها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للغفران أو الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يأمل أن تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمة لروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل - فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية - كل أولئك ضحى بمفاتيح الابتكار والأصالة ، ومع أن الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد أخيلة الشعر المنيرة . أما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامرہ ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدأ أن المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الانبياء ، وذهب فردريك الأكبر الى « أن أى انسان تحرر من الهوى سيقبل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولندا وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضجة فى انجلترا . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمتع الآن فولتير حينما بالشهرة والمال دون أن يكدرهما مكر . فقد اعترف به الناس أعظم شاعر حى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تمثيلياته ، ونفحته بالف وخمسمائة جنيه من جيبها الخاص (١٧٢٥) . وكتب اكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا في الحاشية ويفاخر بهذه الحياة . وراح يتحدث في ألفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس . ولا شك أنه أسرف في الحديث ، وهذا أيسر شيء في الوجود . وحدث ذات ليلة وهو في الأوبرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان - شابو سمعه يسترسل في الحديث في بهو الانتظار فسأله في خيلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه - ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر . وبعد يومين التقيا في الكوميدي - فرانسيز ، وأعاد روهان سؤاله . ويختلف الرواة في الجواب الذي أجابه به فولتير ، قالت رواية انه أجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعرف أن يشرف الاسم الذي يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه أجاب « ان اسمى يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » . ورفع السيد النبيل عصاه ليضربه ، وأتى الشاعر بحركة ليستل سيفه . وكانت آدريين لكوفرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلها تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان .

وفى ٤ فبراير كان فولتير يتغدى في بيت الدوق صلى ، واذا رسالة تنبئه أن بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، واذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه في شيء من الترفق . وحذرهم روهان الذى كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا رأسه ، فعسى أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » . واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد روهان . ولكن صلى أبى . فاعتكف الشاعر فى ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة . ثم ظهر فى فرساي ، مصمما على المطالبة بـ « ترضية » من الشفالييه . وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى . وصدر أمر ملكى للشرطة بأن تراقبه ، ورفض روهان لقاءه . فى تلك الليلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما أراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفسه نزيل الباستيل ثانية . وقال القائد العام لشرطة باريس فى تقريره « ان أسرة المسجين أثنت بالاجماع . . . على حكمة الأمر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه ، وعرض أن ينفى نفسه فى انجلترا مختارا اذا أفرج عنه . وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية .

وقبل اقتراحه ، وأفرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا
أمر أن يوصله الى كاليه . وأعطاه أعضاء الحكومة خطابات تعريف
وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفي
كاليه استضافه أصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالي . وفي ١٠ مايو ركب
البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا في رؤية البلد الذي
سمع أن الناس والعقول فيه أحرار . فلنر ماذا وجد فيه .